الفصل الثامن

يوسف مراد

ومذهبه التكاملي

الفصل الثامن

يوسف مراد
ومذهبه التكاملي

أولاً: مكانته الفكرية

يُعد يوسف مراد (1902 - 1966م) رائد رواد الدراسات النفسية في مصر على أسس أكاديمية علمية، وتميز عن بقية رواد هذا العلم باتساع ثقافته وشمولية رؤيته التي اتخذت من التوفيق بين الرؤية الفلسفية والرؤية العلمية - التجريبية منهجًا لدراسة النفس الإنسانية دراسة تكاملية لا تقف عند حدود علم بعينه وإنما تستفد من كل العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان وبقية الكائنات الحية على حد سواء. كما كان له الفضل الأول في نشر الاهتمام بهذا العلم الوليد وقضاياه في ربوع مصر والوطن العربي بتأسيسه لمجلة علم النفس بالاشتراك مع رفيق دربه مصطفى زيور ثم بتأسيسه للكتاب السنوي لعلم النفس بعد توقف صدور المجلة كما كان مؤسسًا لجماعة علم النفس التكاملي الذي كان رائدها والمنظر لاتجاهها الفكري عبر مؤلفاته ومقالاته وما أشرف عليه من دراسات وأبحاث تمت تحت هذا المسمى.

ثانياً: حياته ونشاطاته الفكرية والعامة

ولد يوسف مراد في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام 1902م بالقاهرة لأسرة مسيحية مارونية تعود في أصلها إلى لبنان. وقد وفدت إلى مصر في القرن التاسع عشر. وقد تلقى تعليمه الأولى في المرحلتين الابتدائية والثانوية بمدرسة الفرير الفرنسية مثله في ذلك مثل كل أبناء جيله من نفس الطائفة مما كان له أثره الكبير في اتقانه للغة الفرنسية كأهلها. وقد أتم دراسته

للبكالوريا عام 1921م من القسم الأدبي، كما حصل عام 1925م على نفس الشهادة من القسم العلمي أيضًا مما يعد في ذلك الحين حدثًا فريدًا حيث جمع بين الثقافتين العلمية والأدبية مما مكنه من الجمع بين البلدين في شخصيته العلمية منذ هذه الفترة المبكرة من حياته والتي ستستمر معه طوال حياته وتظهر بصماتها واضحة في كتاباته واهتماماته.

أكمل بعد ذلك دراسته العلمية بالالتحاق بجامعة القاهرة (فؤاد الأول آنذاك) ضمن أول دفعة تلتحق بالجامعة بعد أن أصبحت جامعة حكومية عام 1920م. وقد التحق بقسم الفلسفة وتتلمذ آنذاك على تلك الكوكبة المتميزة من الأساتذة الأجانب من جامعات باريس ولندن وبروكسل، حيث لم يكن في الكلية إلا أستاذ مصري واحد هو طه حسين الذي كان الوحيد الذي يلقي محاضراته باللغة العربية أما بقية الأساتذة فكانوا جهابذة أوربيين من أمثال أندريه لالاند وربي واسرتيبه وروجيه ويوابيه وغيرهم. وقد كان من بين الأساتذة المصريين الذي تتلمذ علهيم في السنوات الجامعية التالية مصطفى عبدالرازق الذي بدأ تدريس الفلسفة الإسلامية لهم عام 1927م ومنصور فهمي الذي كان قد بدأ تدريسه لمادة علم الأخلاق في العام السابق 1926م. وقد روى مصطفى زيور رفيق درب مفكرنا وزميله في نفس الدفعة عنه أنه لم يكن يجد أي صعوبة في المواد التي تدرس باللغات الأوربية بينما واجهته صعوبة في المواد التي تدرس باللغة العربية ولذلك طلب من الشيخ مصطفى عبدالرازق الذي كان قريبًا من طلابه أن يحدد له مقدمًا جميع عناصر المنهج في الفلسفة الإسلامية حتى يعكف عليها وعلى أمهات الكتب فيها بضعة شهور وكان لذلك أثره بعد ذلك في اتقانه العميق للغة العربية والمستوى الرفيع الذي بدأ يعبر به عن أعقد القضايا الفكرية والعلمية في مؤلفاته وفي كتاباته العامة.

تخرج يوسف مراد عام 1930م وكان أول دفعته مما مكنه من الحصول على بعثة للحصول على الدكتوراه من فرنسا، وبالفعل سافر إلى باريس عام 1931م، حيث حصل في البداية على عدة شهادات من بينها واحدة في علم النفس عام 1932م، وأخرى في الأخلاق والاجتماع في نفس العام، وثالثة في تاريخ الفلسفة ورابعة في الفلسفة والمنطق عام 1933م، ثم خامسة في الدراسات الطبيعية عام 1934م وقد توجت هذه الشهادة بحصوله على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة عام 1935م بعد التقدم ببحث موضوعه سيكولوجية الجهد منذ عهد فلاسفة اليونان حتى الدراسات التجريبية في القرن العشرين. وقد سجل لدرجة الدكتوراه بعد ذلك

وكان عليه ليحصل على دكتوراه الدولة التي لم يرضى عنها بديلاً أن يتقدم برسالتين؛ إحداهما رئيسية والأخرى تكميلية. وكان موضوع الرسالة الرئيسية «بزوغ» الذكاء - دراسة في علم النفس التكويني والمقارن " وقد أعدها تحت إشراف بول جيوم الذي وصف الرسالة بأنها تقدم لعلماء النفس الفرنسيين حقائق ونتائج تجريبية هم للأسف يجهلونها! وبالطبع فقد كان لهذه الرسالة صدى طيب في الأوساط العلمية الفرنسية والعالمية وأصبحت نتائجها مرجعًا أساسيًا في علم النفس وخاصة المكتوب منها باللغة الفرنسية. أما الرسالة التكميلية فكان اختياره لموضوعها ناتج اهتمامه بإحياء جوانب التراث العربي الإسلامي في علم النفس حيث نجح في العثور على نص لم يسبق نشره للإمام فخر الدين الرازي المتوفى 606هـ في علم الفراسة فحققه من أكثر من مخطوط وشرحه وعلق عليه وترجمه إلى اللغة الفرنسية وقدم له بمقدمة ضافية عن تاريخ علم النفس منذ عهد اليونان حتى العصر الحاضر مبينًا أوجه الشبه بين قضايا علم النفس ونظرية الجشطالت ومبادئ السلوكية. وقد رحبت الأوساط العلمية أيضًا بهذا العمل الرائد فجاء ذكره في مجلة إيزيس المتخصصة في تاريخ العلم والفلسفة عام 1941م وفي الجزء الثالث من كتاب جورج سارتون مدخل لتاريخ العلم. وقد تلقى يوسف مراد خطابًا من سارتون أثنى فيه على هذا البحث الهام. استغرق إعداد هذين البحثين أربع سنوات بين عام 1935م، 1939م وهو العام الذي أنهى فيه يوسف مراد دراساته العليا وحصوله على دكتوراه الدولة.

وقد عاد عقب مناقشته للرسالة في فبراير 1940 إلى وطنه مصر، ليعين مباشرة مدرسًا لعلم النفس بجامعة فؤاد الأول ويحل محل الأستاذ الأجنبي الذي كان يدرس هذا العلم باللغة الفرنسية. وقد تدرج بعد ذلك في سلك الوظائف الأكاديمية فرقى إلى درجة أستاذ مساعد في التاسع والعشرين من مارس عام 1947م ثم شغل وظيفة أستاذ كرسي الفلسفة عام 1950م، وانتقل بعد ذلك ليتولى كرسي علم علم في الثامن والعشرين من نوفمبر 1956م. وقد تولى رئاسة مجلس قسم الفلسفة أربع سنوات من عام 1953م حتى عام 1957م ومما يذكر أنه قد تخلى بإرادته عن رئاسة القسم، ومع ذلك ظل أستاذًا بالقسم ويمارس عمله فيه حتى بلغ سن المعاش عام 1962م. ولم يعش بعد ذلك طويلاً حيث فقدته مصر وفقده علم النفس المصري والعربي في الثالث والعشرين من سبتمبر 1966م بعد معاناة طويلة من المرض وغصة أليمة من الذين

تتكروا لفضله وخاصة في أخريات أيامه على حد تعبير تلميذه فؤاد أبو حطب (يوسف مراد - العالم الفيلسوف الفنان، ص212).

لم يقتصر عمل يوسف مراد على ممارسة الأستاذية داخل أسوار الجامعة وبين طلابه، لكنه آثر منذ عودته من باريس أن يكون له نشاطًا بارزًا في مجال نشر علم النفس والاستفادة منه في كافة ميادين الحياة في مصر. ولعل أبرز ما يكشف لنا ذلك أنه بادر عقب عودته بكتابة كتاب أطلق عليه «شفاء النفس» ونشر ضمن سلسلة اقرأ الشهيرة عام 1943م، وبعد ذلك بعامين فكر في تأسيس جماعته الشهيرة؛ جماعة علم النفس التكاملي التي بدأت نشاطها عام 1945م بإصدار مجلة «علم النفس» التي توخت منذ الوهلة الأولى نشر مقالات علمية خالصة تستوحى الحقائق السيكولوجية في معالجة الموضوعات العلمية المختلفة، وكانت هذه أول مرة يحدث فيها هذا في تاريخ البحوث السيكولوجية في مصر والشرق العربي، كما كانت أول مرة تنشر فيها مقالات الكُتَّاب العرب بجانب مقالات الكتاب المتخصصين في العالم بلغتها الأصلية مع ترجمة عربية لها أو ملخصًا عربيًا لها في نفس الوقت. وقد توالت أعداد هذه المجلة في الصدور كل أربعة شهور في حوالي مائة وستين صفحة عالجت خلالها كافة القضايا العلمية والسيكولوجية، وخصصت أعدادًا لدراسة سيكولوجية الطفل، والفن، وعلم النفس والحرب، وعلم النفس الجنائي، وعلم النفس الصناعي... إلخ. حتى بلغت من العمر ثماني سنوات كما نشرت خلالها ما قرب من أربعة آلاف صفحة ثم احتجبت عن الصدور عام 1953م مصدرة في عدد فبراير بمقال عنوان «صوت آخر يسكت»، لكن هذا الصوت المحب لنشر الدراسات النفسية والمؤمن بأهمية علم النفس في حياة الأمة لم يسكت حيث عاودت جماعة علم النفس التكاملي نشاطها برئاسة يوسف مراد عام 1954م بإصدار ما سمي بالكتاب السنوي لعلم النفس. (انظر: تصدير يوسف مراد لهذا الكتاب، ص6). لكن للأسف لم يصدر من هذا الكتاب سوى مجلد واحد توقف بعدها.

وبالإضافة إلى هذا الإسهام العلمي البارز في إصدار مجلة علم النفس، والكتاب السنوي لعم النفس وتأسيس جماعة علم النفس التكاملي ووضع تصور نشاطها النظري والتطبيقي، كان له نشاطه البارز أيضًا في تكوين مدرسة علمية متميزة خرجت أجيالاً من الدارسين الجادين لعلم النفس؛ فقد أشرف يوسف مراد على ستة عشر رسالة علمية للماجستير والدكتوراه

وكـان تلاميـذه نخبة متميزة قـادوا تيار هذا العلـم في جيله الثاني في مصر مـن أمثال مصطفى فهمي، إسـحق رمزي، وأحمد زكي صالح، أبومدين الشـافعي وماهر كامل ومصطفى سـويف وكمال دسـوقي وعبدالمنعم المليجي وكمال الدين نايل وفايزة على كامل وصالح الشماع وسامي الدروبي.

أمـا خـارج دائرة علم النفس، فقد كان ليوسـف مراد نشـاطًا فنيًا بـارزًا، ويبدو أن هذا الاهتمام بالفن جاء بمصادفة تاريخية حيث قام بعد رحيل الأسـاتذة الفرنسيين عن الجامعة بعد العدوان الثلاثي على مصر، قام بتدريس مواد الحضارة الفرنسـية وتاريخ الفنون التشـكيلية في فرنسـا، والنقد الأدبي، وسيكولوجية الإبداع في الشعر. وامتد نشاطه في هذا المجال إلى خارج الجامعة فألقى محاضرات عن سـيكولوجية الفن لأعضاء مرسـم الفنـون الجميلة بكلية الفنون الجميلـة بـين عامـي 1959 - 1960م، كما ألقى عقب ذلـك محاضرات في علـم النفس والأدب والفنون الجميلة في متحف الفن الحديث، وندوة الكتاب وأتيليه الإسكندرية والقاعة الشرقية بالجامعـة الأمريكية والبرنامج الثاني في الإذاعة المصرية. وقد بلغ أوج نشـاطه في هذا المجال حينـما طلبت منـه وزارة الثقافة قبيل وفاته الإشراف على الدراسـات العليا المسـائية في معهد التذوق الفني.

والطريف أنه قد انتقل من ميدان المحاضرة الأكاديمية في مجال الفنون وسيكولوجية الفن والإبداع إلى مجال التطبيق حيث يروي عنه أنه مارس فن التصوير في السنوات العشر الأخيرة من حياته، وقد حاول بالفن أن يعالج أزمته الشـخصية في أواخر حياته والتي تمثلت في شـعور حاد بالاغتراب والعزلة والخوف من فقدان التكامل السيكولوجي.

ولعل من أبرز جهوده في مجال الاسـتفادة من علم النفس في مختلف مجالات الحياة والعلوم، أنه كان السـبب في إدخال القياس السيكولوجي والعيادة النفسية بالجيش المصري حيث ألقى عـام 1946م مجموعة محاضرات في كلية أركان الحرب أثارت لدى بعض الضباط الاهتمام بهذه الجوانـب فطالبوا باسـتمرار ذلك إلى أن تحقق طلبهـم على يد الضباط الأحـرار في ثورة يوليو 1952م الذين دعوه للمشـاركة في تأسـيس قسم الخدمة النفسـية بالجيش. والغريب أن هذا لم يشـفع له عندهم حيث أحيل إلى لجنة التطهير الجامعيـة في فبراير 1953م بحجة أنه كان يجبر الطلاب على شراء مجلة علم النفس والاشـتراك فيها، مما ترتب عليه توقف المجلة عن الصدور

بعـد ذلك. لقد عاش يوسـف مـراد إذن حياة حافلـة في خدمة علم النفس امتـازت بالمزج بين النظـر والعمـل، وبين الفكر والتطبيق لدرجـة جعلت علم النفس وهو العلـم الوليد بعد عدة سنوات أحد التخصصات الرئيسية في مصر والعالم العربي. وأنشئت لدراسته الأقسام المستقلة في كليات الآداب المصرية والعربية.

ثالثًا: مؤلفاته ومترجماته

تنـوع الإنتاج الفكرية ليوسـف مراد بين التأليـف والترجمة وكتابة المقـالات للعديد من المجلات العلمية في مصر وخارجها.

أما كتبه المؤلفة فأهمها كتاب «شفاء النفس» الذي كان أول كتبه، وقد صدر ضمن سلسلة اقرأ عام 1943م. وتبعه بأهم كتبه في مجال علم النفس العام؛ كتاب «مبادئ علم النفس» الذي كتبه عام 1942م وصدرت طبعته الأولى في فبراير 1947م، وهو يعد - حسب تعبير أبو حطب - واحـدًا من أركان الثقافـة المصرية المعاصرة وتعبـيرًا أمينًا عن نظرية صاحبة السـيكولوجية العامـة. وقد جاء هذا الكتاب في خمسـة أبواب اشـتملت على خمسـة عشر فصـلا، وقد صدره بلمحـة في تاريخ علم النفس وصلته بالفلسـفة ثـم بتمهيد عن موضوع علـم النفس ومناهجه وفروعه.

أما الباب الأول فقد تحدث فيه عن الاتجاهات العامة للحياة النفسـية وبدأه بفصل صَّنف فيه الظواهر النفسـية ثم بفصل تحدث فيه عن السلوك وتصنيف دوافعه، ثم بفصل تحدث فيه عن الإحساس. أما الباب الثاني فكان موضوعه الاستجابات المباشرة بدأه بفصل تحدث فيه عن الإحسـاس بالملائم والإحسـاس بالمنافـر (اللذة والألم)، ثم تحدث في الفصـل التالي عن دوافع السلوك والاستجابات الآلية الناجحة، وتبعه بفصل عن الانفعال. وفي الباب الثالث تحدث عن الاستجابات المرجأة فخصص فصلاً للحديث عن العواطف وتوجيه النشاط وتعديله، ثم تحدث عـن الإدراك وكذلك عن التعلم والعادة، وخصص فصلاً أخيرًا عن الذاكرة وتداعي المعاني. أما البـاب الرابع فقد كان موضوعه الاسـتجابات الاسـتبدالية وتحدث فيه فقط عـن التخيل. أما البـاب الخامس والأخير فقد خصصه للحديث عن الاسـتجابة الملائمة الفعالة وتحدث فيه عن التفكـير واللغـة، ثم عـن الذكاء، ثم عن الانتبـاه والإرادة ثم أنهاه بفصل عـده خاتمة للكتاب

كله تناول فيه دراسة الشخصية. وقد جاء هذا الكتاب الرائد في حوالي أربعمائة صفحة من القطع الكبير اختتمت بمعجم إنجليزي - عربي لمصطلحات علما لنفس جاء في حوالي ثلاثين صفحة.

وقد كتب بعد صدور هذا الكتاب الرائد عدة كتب أخرى منها «سيكولوجية الجنس» الذي صدر أيضًا عن سلسلة اقرأ عام 1948م. كما أصدر بعد ذلك في نفس السلسلة كتابًا ثالثًا بعنوان «سيكولوجية المرأة» عام 1954م. وقد شغل أثناء ذلك بإصدار مجلة علم النفس ثم بالكتاب السنوي لعلم النفس، وكتابة بعض المقالات في عدة مجلات أخرى مثل مجلة «المحبة» ومجلة «حياتك». وقد جمع من هذه المقالات ما أصدر من خلاله كتابين آخرين؛ بعنوان «دراسات في التكامل النفسي» الذي صدر عام 1958م، و«علم النفس بين الفن والحياة» الذي صدر عام 1966م. وقد أصدر د. مراد وهبه بعد وفاة يوسف مراد كتاب ثالث بعنوان «يوسف مراد والمذهب التكاملي» جمع فيه عدد آخر من تلك المقالات، وقد صدر ذلك الكتاب عام 1974م عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة.

أما في مجال الترجمة فقد أثر عنه ترجمة واحد من أهم المراجع في مجال فلسفة العلم ومناهج البحث، كتاب كلو برنار «مدخل إلى الطب التجريبي» الذي ترجمه بالاشتراك مع حمد الله سلطان وصدر عن وزارة المعارف العمومية عام 1944م. وقد صدره بمقدمة قيمة عن الصلة بين الفلسفة والعلوم وعن دور فلسفة العلم وأهميتها كفرع من فروع الفلسفة «يحاول تنظيم العلوم والربط بينها وتحديد صلة كل علم بالعلوم الأخرى للوصول إلى تعليل الكون كنظام واحد يجب التأليف بين مختلف أجزائه بعد أن اضطرت العلوم الخاصة إلى تحليله من وجهة نظر جزئية» (ص. ز). واختتم هذا التصدير الجدير بالتأمل بإشارة إلى الفرق بين القوانين العلمية ونظرة العلماء لها بين القرنين التاسع عشر والعشرين حتى يدرك القارئ ما طرأ على فلسفة العلم من تغير منذ أن كتب كلود برنار كتابه في القرن التاسع عشر.

وقد أشرف يوسف مراد كذلك على ترجمة مرجعين رئيسيين في علم النفس هما؛ كتاب «ميادين علم النفس» لمحرره جيلفورد، وكتاب «مناهج البحث في علم النفس» لمحرره أندروز. ولم يقتصر جهده على ترجمة الكتب أو مراجعة ترجمتها، بل كان جّل جهده في هذا الميدان يتمثل في تقديم أحدث المؤلفات الأجنبية في ميدان علم النفس إلى اللغة العربية

عبر ملخصات لمحتوياته وعروض لأهم موضوعاتها في مجلة علم النفس وكذلك في الكتاب السنوي لعلم النفس؛ خذ مثلاً ما قدمه من عروض في عدد واحد فقط من هذه الأعداد؛ فقد قدم وحده في المجلد الأول عروضًا لعدد من هذه المؤلفات بعضها في علم النفس الاجتماعي في الأوساط المدنية والعسكرية، وأربعة منها في علم النفس الصناعي، ثم لأربعة كتب مستقلة هي «تصنيف النماذج الجسمية» و«المزاجية حسب شلدن»، و«تجارب إيمس في الإدراك» تأليف ايتلسون، و«قاموس الطب العقلي» تأليف بورو، ومناهج علم النفس تأليف أندروس وآخرين، والتقدم الصناعي والتكامل الاجتماعي تأليف سكون ولنتون.

لقد كان طموح يوسف مراد لا يقف عند حد في مجال التأليف في علم النفس؛ فقد كان يطمح إلى وضع قاموس متكامل لمصطلحات علم النفس والطب العقلي وقد بدأ مشروع هذا القاموس بنشره لعشرات من هذه المصطلحات في أعداد مجلة «علم النفس». وقد خطط لمشروع كتاب عنوانه «افهم نفسك» يبلور فيه نظريته حول الإنسان. ولم ينشر منه سوى أربعة مقالات بمجلة «المحبة» عامي 1962، 1963م. كما كان قد بدأ مشروع آخر لكتاب بعنوان «العبقرية والجنون» من خمسة فصول لكنه لم ينجز منها سوى فصلين هما مشكلة العبقرية والجنون، والعبقرية جنون.

رابعا: مذهبه التكاملي في الفلسفة وعلم النفس

آمن يوسف مراد منذ فترة مبكرة من حياته الفكرية بمنهج أفضى به إلى مذهب متكامل في دراسة النفس الإنسانية والسلوك الإنساني هو المنهج التكاملي. ولاشك أن الذي ساعده على اكتشاف واعتناق هذا المنهج المفضي إلى ذلك المذهب هو دراسته للفلسفة بشكل عميق، فضلاً عن محاولاته دراسة القانون والهندسة الميكانيكية والطب وعلوم الحياة. فقد مكنته هذه الدراسات من إدراك حقيقة أنه لا يمكن دراسة الإنسان أو أي كائن حي مثله إلا في ضوء الحديد من العوامل المؤثرة في نموه وحركته في الحياة، وهذه العوامل تتشابك وتتضافر في التأثير على الشخصية، ومن ثم فإن «المنهج التكاملي هو الذي يسترشد في بحوثه بالحركة الدائرية اللولبية؛ فيحاول جمع التيارات التي تساهم في تكوين ظاهرة من الظواهر الإنسانية سواء كانت نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو خلقية أو فلسفية مع كشف تنظيم هذه التيارات

وصلتها بعضها ببعض. ففي دراسته للشخصية مثلاً يرمي إلى الربط بين الماضي والحاضر مع مراعاة مصير الشخصية المحتمل إذ أن الشخصية تخضع في نموها وترقيها لقوانين ديناميكية توجيهية». (المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية، مجلة علم النفس، مجلد 1، ص290).

إن هذا المنهج التكاملي يعيد تنظيم واستخدام المنهجين الرئيسيين في علم النفس لدراسة السلوك الإنساني وهما التفسير التاريخي أو التكويني، والتفسير الشكبي؛ فإذا كان الأول حاول الربط بين الماضي والحاضر في سلوك الشخصية ودوافعها، و إذا كان التفسير الشبكي يتناول الحالة الراهنة أو المظهر السلوكي الراهن كتجربة نفسية من حيث هي تجربة شعورية يصفها الشخص نفسه، فإن الاعتماد على أحدهما فقط دون الآخر يقدم تفسيرًا ناقصًا لطبيعة سلوك الإنسان ودوافعه. ومن ثم فإن المنهج التكاملي يستخدمها معًا و يضيف عليهما ذلك العنصر اللولبي الدائري الذي يكشف عن أن الرقي في ا لسلوك لا يسير طبقًا لخط مستقيم مطرد كما أن النمو فيها ليس تقدمًا إلى الأمام ثم نكوص إلى الوراء بحيث يعود الأمر إلى نقطة البدء. بل إنه في الواقع «رجوع قليل إلى الوراء استعدادًا للوثبة القادمة» (ص293). فالمنهج التكاملي إذن هو «الذي يراعي في محاولة تفسيره السلوك الإنساني ماضي الشخص وحاضره وكذلك ما يحتمل أن يؤومل إليه في المستقبل» (ص292).

وعلى ذلك يكون علم النفس التكاملي هو القادر على «أن يفسر لنا كيف يتم الترقي الذي يُحوّل الفردية البيولوجية إلى شخصية متكاملة وأن يعطينا صورة صادقة لمراحل التكوين والنمو مع بيان شتى العوامل والشروط البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية» (ص295).

وقد حدد يوسف مراد كيفية هذا الترقي للشخصية الإنسانية بحيث تتكامل جميع مقوماتها عبر أربعة قوانين عرضها مفصلة في «مبادئ علم النفس»(ص33، 36)، وأعاد عرضها في العدد 3 من المجلد الأول لمجلة علم النفس (ص296) بصورة مقتضبة على النحو التالي:

- **القانون الأول:** يتجه الترقي في مجال الحوافر والميول من اللاشعور إلى الشعور.
- **القانون الثاني:** يتجه الترقي في مجال الشخصية من الأفعال الآلية إلى الأفعال الإرادية.
- **القانون الثالث:** يتجه الترقي في مجال النشاط الحركي من استخدام الأشياء إلى استخدام رموزها.

❐ **القانون الرابع:** يتجه الترقي في مجال النشاط الذهني من الإحساس إلى التصور الذهني.

والذي يستعرض كتابه «مبادئ علم النفس» يجد أنه التزم بهذا المنهج التكاملي وقوانينه الكاشفة عن كيفية السلوك الإنساني وتطوره ومظاهره سواء في الترتيب الشامل لموضوعاته بأبوابه وفصوله أو في دراسة كل جزئية على حدة، وقد بلغ ذروة تطبيقه لهذا المنهج في دراسته للشخصية الإنسانية وتكاملها في البيئة الاجتماعية في نهاية ذلك الكتاب الذي أنهاه بخاتمة كشف فيها رؤيته للشخصية الإنسانية السوية فقال:

«أنها الوحدة المتكاملة المكونة من جميع حالاتنا الشعورية الراهنة ومن شبكة ذكرياتنا المركز حول الذات الشاعرة وكذلك من كل آمالنا المتطلعة نحو المستقبل أي من كل ما لدينا من ممكنات. وفي الشخصية المتكاملة تتحقق القوانين الأربعة المسيطرة على ترقي الحياة النفسية (وهي التي أشرنا إليها فيما سبق)؛ فالتكامل الوجداني يقضي بتأور الدوافع والميول في الشعور قبل الشروع في العمل ومنعًا للتهور والاندفاع الأعمي. والتكامل الإرادي يقضي بتضييق دائرة الأفعال الآلية واخضاع الآليات المكتسبة لسلطان الروية والإرادة. والتكامل العقلي يقضي بازدياد استخدامنا للمعاني والرموز والصور الذهنية بدلاً من قصر الاعتماد على الأشياء المحسوسة. وفي ضوء تكامل هذه القوانين التوجيهية الكبرى بمكننا التقرير بأن الشخصية المتوافقة هي المكونة من عدة مقومات ديناميكية هي بمثابة تيارات مختلفة تنفجر مياهها في أوقات معينة تعيينا زمنيًا تبعًا لمراحل النمو الحسي والحركي والنمو الوجداني والنمو العقلي. ثم تتجمع هذه التيارات وترتبط حسب علاقات معينة لا يتحقق بدونها الإتزان الخلقي والتكامل النفسي». (ص366 - 367).

لقد كان يوسف مراد من المؤمنين بنوع من التحليل النفسي الموضوعي لطبيعة الشخصية الإنسانية، فقد كان يرى رغم اعتراض كل المعترضين أن منهج التحليل النفسي الذي استخدمه فرويد كان منهجًا ذا طبيعة تكاملية تلزم المحلل في نهاية الأمر بأن يقف «موقف العالم الموضوعي الذي يتناول مريضه على أنه كتلة من العلل والمعلولات المتبادلة التأثير تضم في شبكة علاقاتها الموقف الكلي الذي يحوى المريض وبيئته ومحلله في آن واحد». (منهج التحليل النفسي وطبيعته التكاملية، مجلة علم النفس، م8، عدد 1، ص32).

وعلى هذا النحو من الفهم التكاملي لطبيعة الشخصية الإنسانية السوية، وعلى هذا النحو أيضًا من الفهم لضرورة علاج المريض النفسي علاجًا تكاملياً، كان يوسف مراج رائدًا من رواد النظرة المتكاملة التكاملية لطبيعة الإنسان في صحته النفسية وفي مرضه النفسي ولم يكن ممكنًا أن يمتلك مفكرنا هذه النظرة الشمولية للطبيعة الإنسانية وتفسير سلوك الإنسان إلا إذا كان بلا شك فيلسوفًا يؤمن بضرورة وجود النظرة الفلسفية إلى جانب النظرة العلمية التجريبية حتى يتكامل الفهم لحقيقة الإنسان وجودًا وسلوكًا.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ملف خدمة يوسف مراد بأرشف كلية الآداب - جامعة القاهرة.

يوسف مراد:

- مبادئ علم النفس العام، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الأولى 1948م.
- المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية، مجلة علم النفس، مجلد 1، عدد 3، فبراير 1946م.
- منهج التحليل النفسي وطبيعته التكاملية، مجلة علم النفس، مجلد 8، عدد 1، يونيه، سبتمبر 1952م.
- الكتاب السنوي في علم النفس، المجلد الأول، دار المعارف بالقاهرة 1954م.
- علم النفس في خدمة الإنتاج القومي، حول مشكلة الوراثة والبيئة، مجلة علم النفس، مجلد 8، عدد 2، أكتوبر 1952 - 1953م.
- من الاستيطان إلى التحليل النفسي، مجلة علم النفس، مجلد 7، عدد 3، فبراير - مايو 1952م.
- (مترجم): مدخل إلى دراسة الطب التجريبي لكلود برنار، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الإميرية ببولاق، القاهرة 1944م.

ثانيا: المراجع

فؤاد عبداللطيف أبو حطب:

- يوسف مراد.. العالم الفيلسوف الفنان، دراسة نشرت في ندوة تكريم رواد علم النفس والتربية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1996م.

مراد وهبه:

- يوسف مراد والمذهب التكاملي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974م.